IJSSP
المجلة الدولية لنشر الدراسات العلمية
المجلد الثالث عشر – العدد الثالث – البحث السابع (ص: 115 - 120)
15 – حزيران – 2022م
www.ijssp.com ISSN: 2707-5184 International Journal of Scientific Studies Publishing

[الأسطورة ثمرة تفاعل بين الذاتي والموضوعي في شعر محمد الفيتوري]

إعداد الباحث:
[سعيد زيان]
[دكتور في اللغة العربية وآدابها - جامعة عبد المالك السعدي تطوان]

الملخص

ارتبط الشعر الحديث والمعاصر بالأساطير حتى صارت علامة دالة عليه بحيث أصبح بعضهم يطلق عليه مصطلح الشعر الأسطوري. الا ان توظيف الاساطير يقتضي مراعاة السياق الشعري وغرض القصيدة.

وقد استفاد الشعراء المعاصرون من توظيف الاساطير في اشعارهم، وهذا الشاعر الفيتوري قد استوعب الدرس جيدا ولم يقحم الأسطورة الا بالقدر الذي يخدم سياق قصائده ورؤيته للعالم، وموقفه من افريقيا وما تعانيه من كل التمييز والاقصاء. لذا وجد ضالته في طائر الرخ، رغم انها ذات أصول شرقية، الا انه استغل فيها البعد الإنساني والمحيط الذي يحيا فيه، والرغبة في إعادة القيم الإنسانية والروحية للإنسان الافريقي حتى يعيش بكرامة وحرية ويستشرف افاق مستقبل زاهر مفعم بالرخاء والرفاهية.

من بين الصعوبات التي يواجهها القارئ وهو ينقب عن الأسطورة في شعر محمد الفيتوري طبيعة الأسطورة ذاتها. صحيح أن كلود ليفي ستراوس Claude Levistrauss ينظر إلى الأسطورة كقراءة للعالم بأسره. ولذلك اشترط النظر إليها بحذر شديد، لأن المتخصصين لهم رؤية متفاوتة حول طبيعة ووظيفة الأسطورة [1].

وهذ ما يستجيب مع قول الباحث مرسيا إيلياد Mircea Eliades عندما يعتبرها واقعا ثقافيا مركبا جدا، يمكن تناوله وتأويله من وجهات نظر متعددة ومتكاملة [2].

إن للأسطورة طابعها المميز عن الشعر والخرافة والحكاية. لكونها تستقل بمضمونها وليس بأسلوبها أو طريقة سردها على حد تعبير ليفي ستراوس فالحكاية جزء لا يتجزأ من مضامين الأسطورة.[3]

ومن ثم تتعدد وظائفها الدلالية بتعدد السياق الشعري، وليس من السهل العثور على أسطورة تنفرد بوظيفة محددة وثابتة من التراث. ونستدل على هذا الثراء الدلالي من شعر محمد الفيتو ري لنرى كيف أعاد صياغة أسطورة ألف ليلة وليلة في قالب جديد يتماشى مع رؤيته الجديدة للواقع فيقول:

بعد قليل

يهبط الرخ الإلهي على الشوارع الحزينة

ويعقم الرجال في أروقة المدينة

يدخل كل رجل حذاءه العتيق

أو صندوقه الأجوف

أو فروته المبقعة

أو يستحيل ضفدعه

تقلب العيون في انبهار

عبر فراغ الليل والنهار.[4]

والرخ طائر خرافي ورد ذكره في أسطورة سندباد، وهي أسطورة كما نعلم عربية شرقية توسل بها الشاعر محمد الفيتو ري لاستجابة مضمونها مع سياق مماثل للواقع المعيشي للشاعر، فيتصور عودة هذا الطائر الخرافي المقدس من جديد إلى الحياة ليجري مسخا على الرجال الذين فقدوا رجولتهم وبطولاتهم، واستحالوا إلى هياكل جوفاء فارغة حقيرة هامشية لا تعير اهتماما للزمن ولا للتاريخ، ويقف مذهولا أمام تقدم الآخر وتطوره، فوظيفة الأسطورة هنا تتحدد في رسم صورة واقعية للإنسان العربي بطريقة خرافية فنية خالية من التقريرية والمباشرة.

ويستمد الفيتوري هذه الأبعاد الأسطورية لإسقاطها على الواقع باعتبارها الحقيقة نفسها، لأنها ترتبط بالمعرفة الأولى التي اكتسبها الإنسان عن نفسه وعن محيطه، على حد تعبير جورج كوزدوف . بل أكثر من ذلك إنها بنية هذه المعرفة فلإنسان البدائي تصوران عن العالم ووحدة الطبيعة. أحدهما "موضوعي" حقيقي والآخر "أسطوري" كقراءة واحدة للطبيعة.[5]

وتمثل أسطورة الرخ أساسا محوريا في تشكيل رؤية الشاعر للواقع والعالم الذي تتداخل فيه الأبعاد الإنسانية والواقعية، واعتبارها قاسما مشتركا بين الإنسان البدائي والإنسان المعاصر. وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الأسطورة نوع لغوي مميز وخيال جامح وحكايات لا تصدق، فإن البعض الآخر يرى أنها لا تخرج عن نطاق الواقع بل تكمن داخل حدوده، وبذلك لا يمكن التفريق بين الأسطورة والكون، كونهما وجهان لعملة واحدة. فالأمر لا يتعلق بقراءة بسيطة للطبيعة، وإنما بفهم عميق لنفس الإنسان داخل هذا المحيط. وباختصار شديد فالأسطورة الآنفة الذكر تقدم فكرة عن موقف الشاعر من العناصر كلها ومعايشته للبيئة التي يعيش فيها، وفكرته عن وجود الإنسان داخل هذا العالم.

وعادة ما تستمد الأسطورة صورها ورموزها من الذاكرة والأحلام، وتعكس محيطا اجتماعيا ودينيا، بلغة خاصة مميزة، فتوصل رسالة شاملة عن أصل ومصير الإنسان وما يتهدده من مخاوف القحط والمجاعة والهلاك. ويرى علماء النفس أن الأساطير تبحث في الخوف وأسرار الطبيعة، والجنس. وما خلق هذه الأسطورة إلا محاولة الظفر باللذة من رغبات وأفكار مكبوتة في حاشية اللاشعور كما يتضح من شعر الفيتو ري في هذا المقطع الشعري:

بعد قليل.

يا حبيبتي التي تسكنني

أنا الذي يسكن في مدائن الرحيل

في قوافل الهجرة

في سواحل الغياب

أركل باب خيمتي.

وأمتطي ظهر جوادي

رافعا راية حزني وانفرادي

موغلا في طرقات المدن القديمة[6]

هذا المقطع يفصح فيه الشاعر عن حنينه وشوقه للعودة إلى الماضي مما يعكس اعتزازه بالموروث القديم وطبيعة العيش البسيطة في الصحراء وما توحيه من امتداد في الفكر وسعة النظر والتأمل في الكون.

وتغسل المياه جسدي

وتنبت الجذور في يدي

فباركني...[7]

كورس العبيد، يا سمكات القاع

عدنا إلى المنابع

أمطار أمطار

الريح عطور

والبرق جسور

للنور والنار[8]

من الواضح أن النماذج الشعرية كفيلة ببلورة رؤية الشاعر الكونية، وغربة الإنسان الإفريقي في وطنه إلى حد نلمس منه حضور الحس الوجداني الذاتي الذي يتجاوزه الشاعر أحيانا لينصهر في وعي جمعي، ويكيف حنينه ورغبته في العودة إلى إفريقيا الغرائبية، قبل أن تشوه صورتها الأصيلة مظاهر الحداثة البيضاء. تحت اسم مبادئ حضارية هجينة ومزيفة، وتجتث جذورها الموغلة في القدم تحت ادعاءات المعاصرة. لتقدم للقارة جغرافية بدائية تتشكل من عناصر فنتازية جذابة (الغابات الكثيفة، الأنهار، الأجساد العارية، الزنوج فقراء، صيادين وفلاحين. يداولون كينونتهم في نوع من الرعوية المتنقلة).

أجوى أجوى...أجوى

بوكمان، سنا أنا بوكمان الأسود

حجر في الطاحونة.

تمثال طيني آت من افريقيا.[9]

لكن ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، إلى جانب هذه الصورة الأسطورية الطازجة، هو عدم الاقتصار على المدلول السطحي، بل يجب أن نسبر أغوارها الرمزية، وبالتالي النظر إلى مختلف عناصر اللوحة البسيطة لإفريقيا لاستعادة الحالة الروحية والذاكرة التاريخية الحقيقية. لهوية أوشكت على التلاشي والانطماس بفعل المشروع الاستعماري الأبيض، الذي عمل على تشويهها وتغييبها، وذلك على مدى تاريخ الصراع بين البيض والسود.

وإزاء هذا الموقف فان الفيتوري يجد نفسه مجبرا لإثارة مفهوم العودة للرحم الإفريقي الأصيل، كرد فعل تجاه مضاعفات التغريب والمسخ والدمار، للتعبير عن موقف ضمني حيال الحضارة الاستهلاكية التي تغلغلت أطماعها البشعة في جميع مناحي حياة السود واستغلالهم وإقصائهم. فيعبر في هذا المقطع الشعري عن الغربة بوضوح حيت يقول:

فوداعا يا إفريقيا.

يا رمجي المكسور

يا إفريقيا. يا كوخي المهجور

يا إفريقيا يا وجهي المذعور

سأكون بعيدا عنك. بعيدا عنك

وتنتسب الأسوار

ما بين خطاي وبينك. يا إفريقيا [10]

يتحدث الفيتو ري عن إفريقيا ولكنه يستحضر صورة الدرويش المتنقل كمحور لعناصر ثابتة من حوله، وما صورة الكوخ البسيط الفارغ إلا وجه من وجوه الحياة الصوفية التي اعتاد عليها الإنسان الإفريقي المحروم من ابسط الأشياء. ويستشرف غدا مشرقا وأملا جديدا ينبعث بصيصه في هذه الظلمة الحالكة التي أرخت سدولها على إفريقيا إبان الاستعمار الامبريالي الذي حرم الإنسان الإفريقي من ثرواته وسعادته فجاءت تيمة الحياة على لسان سافو

سافوا: اغرسني في أرض بذرة

أسقطني في فمها قطرة

انثري فوق روابيها ورقة [11]

سولارا، (تتقلب في فراشها كمن يحلم حلما مزعجا)

ييهايا.. ييهايا

سأرقص الليلة من أجلك يا أمي [12]

هنا هاجس الخوف الذي يقض مضجع الشاعر فيدفعه إلى التوسل بالأسطورة ليهدئ من مخاوفه تجاه غد مجهول ومصير محتوم. ومن تم تشترك الأسطورة والحلم في الكشف عن رغبة ظلت مترسبة في لاوعي الشاعر لا يتم الإفصاح عنها إلا عن طريق أحلام اليقظة واللغة الشعرية.

ولهذه الأسطورة وظيفة إنسانية قديمة عاطفية وسحرية ودينية، وإن اعتبرها بعض علماء الاجتماع، مجرد قنطرة بين "الطبيعة" و "ما وراء الطبيعة" علما أن الاقرار السوسيولوجي بالدوافع الأساسية للأسطورة هي انعكاسات للحياة الاجتماعية بكل ملامحها، ومؤسساتها، وأنظمتها وبنياتها. لا يحتاج إبداعها إلى تفكير وتأمل لبساطتها وعفويتها، وحتى وإن وصفت بأنها نتاج الخيال البشري، فقد يعجز الوعي العلمي تفسيرها لقصوره، ولتعامله مع المحسوسات والظواهر المباشرة ولا يفسح مجالا للخيال والحلم.

وإذا كانت أسطورة الرخ، تتماشى مع هذه المناحي السيكولوجية والاجتماعية، فإنها أيضا تعبر عن جانب عقدي ديني يتجلى بشكل واضح في قول الشاعر الفيتوري:

وكالإله أشعل الحياة في الأشياء

في الأضرحة الخضراء

في الأقبية المروعة

وأغرس النجوم في حديقة الظهيرة

من أجل أن أبصر

نهر النيل في عينيك يا حبيبتي.

وأن أشم عبق النهدين والضفيرة [13]

يوظف الشاعر بعدا رمزيا للدلالة على الجانب الروحي والعاطفي تجاه بيئته التي درج بين أحضانها، ونقل بعض معالمها الدينية والعاطفية والجغرافية، فيحن إلى الزاوية والأضرحة وما تمثله في الحياة الصوفية للإنسان الإفريقي كما يتشوق إلى رؤية حبيبته رمز الأنوثة والخصب ويطمح لرؤية النيل وما يمثله من حياة الرفاه والرخاء. وقد تضمن هذا المقطع بعدا وصفيا سرديا لحدث أصلي يستجيب لمتطلبات ذاتية، ورغبات عميقة ممعنة في اللاشعور، إلا أن هذا البعد العاطفي يتلاحم مع حاجيات عقدية أو أخلاقية تخدم المجتمع. وبالتالي فهي تتعرض لمعنى العلاقات الإنسانية الغيبية بين الخالق والمخلوق، ولكي تنسجم مع هذا المبدأ الديني فهذه العلاقة في حاجة إلى تأويل، لمعرفة مصدر التحولات العميقة.

إن الأهم في دراسة الأساطير ليس دلالتها الذاتية الضيقة، بل رمزيتها الشمولية الضمنية. فنحن نعرف أن كل الأساطير سواء أكانت شرقية أو غربية، قابلة لأن تعاد صياغتها حتى تنسجم دلالتها مع أوضاع طارئة، تختلف كليا عن تلك الأوضاع التي لابست إبداعها، واستيعاب رمزيتها لسياقات مادية وإيديولوجية وعقائدية وأخلاقية شمولية تتعدى قدرات البطل الفرد، التي تدور حوله أحداث الأسطورة. لذلك ازدادت حاجة الشعراء في استثمار طاقتها الدلالية الأسطورية القديمة الذائعة ك "أدونيس" و"عشتار" و"تموز".. وغيرها. فإن المطلوب هو رمزية هذه الشخوص الأسطورية وما تدل عليه من دلالات الخصب والإمحال والبعث والموت، فالشاعر العربي الحديث

والمعاصر يلجأ إلى إفراغ التجربة من محتواها الفردي، وتجريدها من مقامها الذاتي ليمنحها حجما هو بحجم الانشغالات "الأنطولوجية" الكبيرة للمجموعة الاجتماعية كلها.

وقد تتجلى أبعاد الأسطورة الدلالية لطائر الرخ الخرافي لتحيل على ما هو ذاتي وما هو موضوعي، وطريقة استثمار الشاعر الفيتو ري لهذه الأسطورة في تلوين رؤيته للعالم والواقع. وذلك بالاكتفاء فقط بدلالتها، ثم محاولة إعادة صياغتها من جديد حتى تنسجم مع سياقه الشعري عله يثري نظرته للواقع والأحداث الطارئة على محيطه البيئي الإفريقي، ومعاناة الرجل الأسود من إقصاء وتهميش وفقر وبؤس.

وبموازاة مع طبيعة المتن الشعري والشاهد الأسطوري الذي استقيناه بعناية فائقة لنوضح وجهة نظرنا وما استنتجناه من تيمات ومواضيع أرقت الشاعر العربي والإفريقي على حد سواء.

الهوامش:

Claude Lévi-Strauss :Anthropologie-agora-Plon-paris :1979 .P 232.

Mircea Eliade :Aspects du mythe-collection Folio-essais-Edition gallimard,paris :1989.P16

Claude Lévi-Strauss :Anthropologie-agora-Plon-paris :1979 .P 232.

George Gusdorf: Mythe et métaphysique,introductionà la philosophie. P.57.

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص121.

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص122

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص242

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص284 .

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص187

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص203

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص215-216.

محمد الفيتوري الديوان المجلد الثاني دار العودة بيروت 1979ص123.